١٨

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاء تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِين﴾

(المؤمنون: ٢٠)

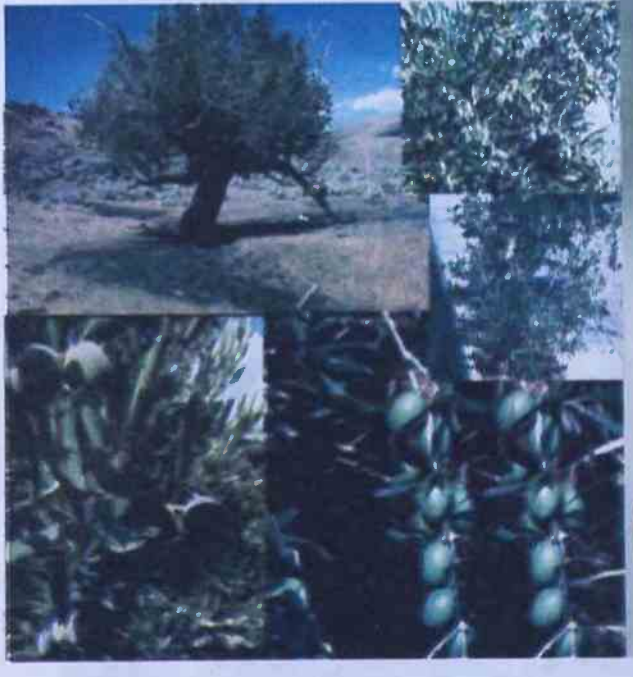

هذه الآية الكريمة جاءت فى نهاية الخمس الأول من سورة «المؤمنون»، وهى سورة مكية، وآياتها ثمان عشرة ومائة بعد البسملة، وقد سميت السورة باسم «المؤمنون» إشادة بهم، وتأكيداً على فضائلهم، وتمييزاً لهم عن غيرهم ممن استزلهم الشيطان فأغرقهم فى أوحال الشك أو الشرك أو الكفر بالله ـ تعالى ـ. ويدور المحور الرئيسى لهذه السورة المباركة حول قضية الإيمان بالله تعالى ربّاً، واحداً أحداً، فرداً صمداً، لا يشبهه أحد من خلقه، ولا يشاركه أحد فى ملكه، ولا ينازعه أحد فى سلطانه، ولا صاحبة له ولا ولد، والتأكيد على هذا التوحيد الخالص لله، وتنزيهه ـ سبحانه وتعالى ـ عن كل وصف لا يليق بجلاله، ومقارنة هذا الإيمان الصادق بأضداده من الشرك بالله أو الكفر به ـ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ.

عرض موجز لسورة «المؤمنون»

هذه السورة الكريمة بشارة للمؤمنين برضاء الله ـ سبحانه وتعالى ـ عنهم. ولذلك استهلت بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

[المؤمنون: ١-١١]

ثم انتقلت السورة الكريمة إلى استعراض عدد من آيات الله فى الخلق للدلالة على طلاقة قدرة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ وفى مقدمة تلك الآيات خلق الإنسان من طين، ومروره بمراحل الجنين المتتالية من نطفة أمشاج، إلى علقة، ثم إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم خلق المضغة عظامًا، إلى كسوة العظام باللحم (العضلات والجلد) فى تتابع عجيب حتى أنشأه الله ـ تعالى ـ خلقًا آخر، وثم حتمية موته ثم بعثه فى يوم القيامة.

ومن تلك الآيات خلق سبع سماوات طباقًا متمايزة، وإنزال الماء من السماء بقدر، وإسكانه فى الأرض، علما بأن الله ـ تعالى ـ قادر على الذهاب به.

وتتضح القدرة الإلهية المبهرة كذلك فى إنبات الأرض بمجرد إنزال الماء عليها، وفى إنشاء جنات من نخيل وأعناب وغيرها من أشجار، ونباتات الحبوب والثمار، والفواكه والخضراوات الكثيرة ليأكل منها الإنسان وأنعامه، وغير ذلك من الحيوانات آكلة الأعشاب، ومن بين ذلك كله خصت هذه السورة المباركة شجرة الزيتون بإشارة محددة وصفتها بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٢٠].

وتحدثت الآيات عن معجزة خلق الأنعام، وتكوين اللبن فى أضراعها من بين دمها والفرث (أى الغذاء المهضوم هضمًا جزئيًا فى كرشها)، وما فى تلك الأنعام من منافع عديدة للإنسان، وأشارت إليها وإلى الفلك كوسيلة من وسائل النقل لهذا المخلوق المكرم من الله ـ تعالى ـ والذى اسمه الإنسان.

ثم انتقلت السورة الى سرد قصص عدد من أنبياء الله ورسله الذين اصطفاهم الله ـ تعالى ـ لهداية أممهم، وأكدت أن رسالتهم جميعًا كانت رسالة واحدة ألا وهى التوحيد الخالص لله ـ تعالى ـ (بغير شريك، ولا شبيه، ولا منازع، ولا صاحبة ولا ولد) وكانت دعوة كل واحد منهم إلى أمته دعوة واحدة تعبر عنها السورة الكريمة بقول الحق ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ ...أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ... ﴾ [المؤمنون: ٢٣، ٣٢].

وسجلت سورة «المؤمنون» تفاعل تلك الأمم مع رسالات ربها، ومن هذه الأمم أمة كل من أنبياء الله نوح، وهود، وصالح، وأعداد أخرى من الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله نبيا إثر نبي، ورسولا إثر رسول، حتى جاء زمان موسى وهارون، ثم زمان عيسى ابن مريم - على رسولنا وعليهم جميعا من الله السلام -، وكان أمر الله تعالى إليهم واحداً، مؤكداً على وحدة رسالة السماء، وعلى الأخوة بين الأنبياء، وعلى وحدة الجنس البشرى كله، وإن كان أتباع تلك الرسالات قد تفرقوا، واختلفوا، وابتدعوا فيما أرسل إليهم، فأفسدوا إفسادا كبيرا، وظنوا أن ما يمدهم به الله من مال وبنين هو خير لهم. وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤) أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ (٥٦) ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٦].

وتعاود السورة الكريمة إلى سرد المزيد من صفات المؤمنين فتنعتهم بقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١) وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧، ٦٣].

وفى مقابلة واضحة لصفات المؤمنين ذكرت السورة الكريمة بعض صفات الكفار والمشركين ممثلين بكفار قريش ومشركيهم وبمن يسير على خطاهم إلى يوم الدين، عارضة لشيء من ندمهم وحسرتهم يوم القيامة، وفى ذلك تقول:

﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ

﴿٦٧﴾ أفلم يدبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ﴿٦٨﴾ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ [المؤمنون : ٦٣ ، ٦٩].

ثم عادت السورة الكريمة إلى الاستشهاد بعدد من آيات الله، الدالة على طلاقة قدرته، ومنها خلق السمع والأبصار والأفئدة، ونشر الجنس البشرى فى الأرض، وحتمية بعث جميع الخلائق بعد موتهم ثم حشرهم إلى الله، الذى هو يحيى ويميت وله اختلاف الليل والنهار.

وردت هذه السورة الكريمة على الذين ينكرون البعث، والذين يتهمون وحى السماء - زورا - بأنه من أساطير الأولين، واستعرضت حوارا بين خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ وبين الكفار والمشركين. ونزهت الذات الإلهية عن كل من الولد والشريك لأنهما من صفات المخلوقين التى لا تليق بجلال الله، وفى ذلك تقول:

﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴿٩١﴾ عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون﴾ [المؤمنون: ٩١ ، ٩٢]

وتنتقل الآيات إلى وصف ذل كل من الكفار والمشركين فى ساعات احتضارهم، وبعد بعثهم، وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ﴿٩٩﴾ لعلى أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ﴿١٠٠﴾ فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ﴿١٠١﴾ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ﴿١٠٢﴾ ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴿١٠٣﴾ تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴿١٠٤﴾ ألم تكن آياتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ﴿١٠٥﴾ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴿١٠٦﴾ ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ﴿١٠٧﴾ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٨].

وتقارن الآيات بعد ذلك بين موقف المؤمنين الذين يطلبون المغفرة والرحمة من الله تعالى، وموقف الكفار والمشركين الذين كانوا يقفون من المؤمنين موقف

الاستهزاء والسخرية والضحك، فجزى الله المؤمنين بأن جعلهم الأعلون فى الدنيا والفائزين فى الآخرة.

وتختتم السورة الكريمة بالتأكيد على أن البشر لم يخلقوا عبثًا، وأنهم حتمًا راجعون إلى الله، وعظَّمت ذلك الإله الملكَ الحق الذى لا إله إلا هو رب العرش الكريم، واستنكرت شرك المشركين الذين هددتهم بعقاب شديد من الله، ونعتتهم بالكافرين، وقررت أنهم لا يفلحون أبدًا.

وفى المقابل وجهت الآيات رسول الله ﷺ - ومن ورائه كل المؤمنين ببعثته الشريفة - أن يطلبوا المغفرة والرحمة من الله الذى هو خير الراحمين، وفى ذلك تقول:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٨].

من ركائز العقيدة فى سورة «المؤمنون»

من ركائز العقيدة الإسلامية التى جاءت بها «سورة المؤمنون» الإيمان بما يلى:

(١) إن الجنة حق، وأنه لايرث الفردوس خلودا فيها إلا المؤمنون الذين عددت السورة الكريمة جانبا من صفاتهم ولذلك سميت باسمهم.

(٢) إن الله - تعالى - هو خالق الإنسان، ومقدر مراحله الجنينية مرحلة بعد أخرى حتى تتم تسويته، وأن الله تعالى هو رب كل شىء ومليكه، وأن الإنسان لم يخلق عبثًا، وأنه حتمًا عائد إلى ربه للحساب والجزاء، ثم الخلود فى الحياة الآخرة.

(٣) إن الموت حق على جميع المخلوقين، وإنه محدد - مكانًا وزمانًا - لكل مخلوق سلفًا قبل خروجه إلى هذه الحياة الدنيا.

(٤) إن الآخرة حق، وإن البعث والحشر والحساب حق، وإن الجنة حق، وإن النار حق.

(٥) إن أنبياء الله ورسله ورسالاته حق، وإن هذه الرسالات كلها واحدة، وإنها تكاملت وتمت وحفظت فى الرسالة الخاتمة التى بعث بها الرسول الخاتم ﷺ.

(٦) إن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هو الحق، وإن آياته حق، وإنه ـ تعالى ـ هو عالم الغيب والشهادة، وهو رب العرش الكريم، وإن الشرك بالله كفر به، وإنه لا يفلح الكافرون أبدًا.

(٧) إن الله ـ تعالى ـ هو خير الرازقين، وهو الذى يحيى ويميت، وله اختلاف الليل والنهار، وهو ـ سبحانه وتعالى ـ منزه عن الصاحبة والولد، وعن المنازع، والشريك والشبيه، وعن كل وصف لايليق بجلاله.

(٨) إن الاستعاذة بالله ـ تعالى ـ من همزات الشياطين، ومن أن يحضرون هى حصن المسلم فى كل وقت وفى كل حين.

(٩) إنه لا عودة بعد الموت إلا فى يوم البعث، وذلك لأن الأموات وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون، وبأن نفخة الصور الأولى يصعق عندها كل حى، والنفخة الثانية يبعث عندها كل ميت.

(١٠) وإن من ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون، و من خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون.

(١١) إن طلب المغفرة والرحمة يجب أن يكون من الله وهو ـ سبحانه وتعالى ـ خير الراحمين.

من الآيات الكونية فى سورة «المؤمنون»

(١) خلق الإنسان من سلالة من طين.

(٢) وصف المراحل المتتالية فى تكوين الجنين البشرى بدقة بالغة.

(٣) وصف كل من الغدد التناسلية والرحم بأنه قرار مكين.

(٤) خلق السماوات السبع وما بينها من فواصل.

(٥) إنزال الماء من السماء بقدر، وإسكانه فى الأرض.

(٦) إخراج النبات من الأرض بعد إنزال الماء عليها من السماء، وإنشاء جنات من نخيل وأعناب وغير ذلك من النباتات الكثيرة وما لها من الثمار.

(٧) وصف شجرة الزيتون بأنها تنبت بالدهن وصبغ للآكلين، والإشارة إلى شجر الزيتون الذى ينبت فى طور سيناء بصفة خاصة.

(٨) وصف الأنعام بأن فيها عبرة للمعتبرين، خاصة ما يخرج من بطونها من اللبن، ومايؤكل منها من لحم، وغير ذلك من منافعها الكثيرة للإنسان.

(٩) الإشارة إلى إمكانية استخدام كل من الأنعام والفلك كوسائل للتنقل.

(١٠) التلميح بسبق مراكز حاسة السمع على مراكز كل من الأبصار والأفئدة فى مخ الإنسان.

(١١) الإشارة إلى دوران الأرض حول محورها أمام الشمس بتعبير «اختلاف الليل والنهار».

ذكر الزيتون وزيته فى القرآن الكريم

جاء ذكر الزيتون وزيته فى سبعة مواضع من القرآن الكريم على النحو التالى:

(١) ﴿وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون﴾ [الأنعام: ٩٩].

(٢) ﴿وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾ [الأنعام: ١٤١].

(٣) ﴿ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ [النحل: ١١].

(٤) ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾ [المؤمنون: ٢٠].

(٥) ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾ [النور: ٣٥].

(٦) ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ [عبس : ٢٤ ـ ٣٢].

(٧) ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين : ١ ـ ٣].

وفى هذه الآيات الكريمة من سورة التين يقسم ربنا تبارك وتعالى ـ وهو الغنى عن القسم ـ بكل من التين والزيتون وطور سنين، أى الجبل الذى نودى موسى عليه السلام من جانبه فى شبه جزيرة سيناء ويعرف باسم «طور سيناء»، والبلد الأمين أى مكة المكرمة، أشرف بقاع الأرض على الإطلاق. ويأتى جواب القسم أن الله ـ تعالى ـ قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم، وفطره على حب الإيمان وكراهية الكفر، وعلى حب الخير والنفور من الشر، وحب مكارم الأخلاق وكراهية الإسفاف فى الحديث أو الانحطاط فى السلوك، وغرس فى جبلته حب الالتزام بذلك كله حتى يصل إلى درجات من الكمال البشرى ترفعه إلى مافوق منازل الملائكة إذا التزم بذلك، ولكن إذا انحرف الإنسان عن الفطرة التى فطره خالقه عليها، وانغمس فى وحل الشرك، أو الكفر، أو الضلال، والانحلال الأخلاقى، فإنه ينتكس انتكاسة تهوى به إلى أسفل السافلين.

والتين قد أشير إليه فى القرآن الكريم كله مرة واحدة فقط فى هذه السورة المباركة. ولعل فى النسبة بين ذكر التين مرة واحدة، وذكر الزيتون وزيته سبع مرات حكمة تحتاج منا إلى شىء من البحث والتحقيق.

وكل آية من هذه الآيات الثمان (آيات التين والزيتون) تحتاج فى شرح دلالتها العلمية إلى معالجة خاصة، ولكنى سوف أقصر الحديث هنا على الآية العشرين من سورة (المؤمنون)، وقبل البدء فى ذلك لا بد من استعراض سريع لأقوال عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين فى شرح هذه الآية الكريمة.

من أقوال المفسرين

فى تفسير قوله ـ تعالى ـ:

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ [المؤمنون : ٢٠]

* ذكر الطبرى ـ رحمه الله ـ ما مختصره : ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ وشجرة منصوبة عطفا على (جنات) يعنى بها شجرة الزيتون ﴿من طور سيناء﴾ جبل مبارك نودى منه موسى عليه السلام. واختلف فيه، ﴿تنبت﴾ تثمر ﴿بالدهن﴾ و﴿صبغ للآكلين﴾ ما يأتدمون به.

* وذكر ابن كثير ـ رحمه الله ـ ما مختصره : «﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ يعنى الزيتونة، والطور هو الجبل، وقال بعضهم إنما يسمى طورا إذا كان فيه شجر، فإن عرى عنه سمى جبلاً لا طوراً، والله أعلم». ﴿وطور سينين﴾ [التين: ٢] هو طور سيناء، وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران عليه السلام وماحوله من الجبال التى فيها شجر الزيتون، وقوله ﴿تنبت بالدهن﴾ أى تنبت الدهن . . . ، ولهذا قال: ﴿وصبغ﴾ أى أدم ـ قاله قتادة ـ (للآكلين) أى فيها ما ينتفع به من الدهن والاصطباغ، قال رسول الله ﷺ: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة» وروى عبد بن حميد فى «مسنده» عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة).

* وجاء فى تفسير الجلالين ـ رحم الله كاتبيه ـ ما مختصره: «. . . ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ . . . ، بكسر السين وفتحها، ومنع الصرف للعلمية والتأنيث للبقعة أى: لأنه اسم علم على البقعة التى فيها جبل الطور ﴿تنبت﴾ بضم التاء وكسر الباء من الرباعى أنبت، وفى قراءة بفتح التاء وضم الباء من الثلاثى نبت ﴿بالدهن﴾ الباء زائدة على الأول، ومتعدية على الثانى، وهى شجرة الزيتون، ﴿وصبغ للآكلين﴾ عطف على الدهن أى: إدام يصبغ اللقمة بغمسها فيه وهو: الزيت».

* وجاء فى الظلال ـ رحم الله كاتبها برحمته الواسعة ـ ما نصه : «﴿وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين﴾ . . وهى من أكثر الشجر فائدة بزيتها وطعامها وخشبها. وأقرب منابتها من بلاد العرب طور سيناء. عند الوادى المقدس المذكور فى القرآن. لهذا ذكر هذا المنبت على وجه خاص، وهى تنبت هناك من الماء الذى أسكن فى الأرض وعليه تعيش».

* وجاء فى صفوة البيان لمعانى القرآن ـ رحم الله صاحبها ـ ما نصه : «﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾ أى وأنشأنا لكم شجرة تخرج من الجبل المعروف بهذا الاسم وهو جبل المناجاة ﴿تَنبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ تنبت ملتبسة بالدهن ومصحوبة به . . . . والدهن عصارة كل شىء ذى دسم ، والمراد به هنا : زيت الزيتون ، وقرئ تنبت بضم التاء ، من أنبت بمعنى نبت ، أو من أنبت المتعدى بالهمزة ، كأنبت الله الزرع ، والتقدير : نبت جناها مصحوبا بالدهن ﴿وَصِبْغٍ لِّلآكِلِينَ﴾ أى وبإدام للآكلين ، والصبغ والصباغ ـ بالكسر فيهما ـ : الإدام لأنه يصبغ الخبز ، وأصل الصبغ ما يلون به الثوب ، فكان الزيت إدامًا يؤتدم به كما كان دهنا يدهن به ويسرج منه ، والتغاير بين المعطوف والمعطوف عليه باعتبار الصفات لا باعتبار الذات» .

* وذكر أصحاب المنتخب فى تفسير القرآن الكريم ـ جزاهم الله خيرا ـ ما نصه : «وخلقنا لكم شجرة الزيتون التى تنبت فى منطقة طور سيناء ، وفى ثمارها زيت تنتفعون به ، وهو إدام للآكلين» . وجاء فى تعليق الخبراء بالهامش ما يلى : «. . . تقرر هذه الآية الكريمة أن شجرة الزيتون من ضمن النعم التى أنعم الله بها على الإنسان وعدد بعضها فى الآيات السابقة واللاحقة لهذه الآية إذ إنها من الأشجار الخشبية التى تعمر طويلاً لمدد تزيد على مئات السنين ، فلا يأخذ أمرها جهدًا من الإنسان إنما تثمر ثماراً مستمرة طبيعية . . كما تتميز بأنها دائمة الخضرة جميلة المنظر . وتفيد الأبحاث العلمية أن الزيتون يعتبر مادة غذائية جيدة ، فيه نسبة كبيرة من البروتين . كما يتميز بوجود الأملاح الكلسية ، والحديدية ، والفسفورية ، وهى مواد مهمة وأساسية فى غذاء الإنسان ، وعلاوة على ذلك فإن الزيتون يحتوى على ڤيتامين (أ) وڤيتامين (ب) . ويستخرج من الثمار زيت الزيتون الذى يحتوى على نسبة عالية من الدهون السائلة ، وهذا الزيت يستعمل بكثرة فى التغذية . وتضيف الأبحاث الطبية إلى زيت الزيوت فوائد عديدة ، فهو يفيد الجهاز الهضمى عامة . . والكبد خاصة ، وهو يفضل جميع أنواع الدهون الأخرى نباتية أو حيوانية ، إذ لا يسبب أمراضًا للدورة الدموية أو الشرايين كغيره من الدهن ، كما أنه ملطف للجلد ، إذ يجعله ناعمًا ومرنًا . ولزيت الزيتون استعمالات أخرى كثيرة صناعية ، إذ تحضر منه بعض المركبات ، ويدخل فى إنتاج أفضل وأحسن أنواع الصابون ، وغير ذلك من مختلف الصناعات الغذائية والطبية» .

* وذكر صاحب صفوة التفاسير ـ جزاه الله خيرا ـ ما نصه : «﴿ وشجرة تخرج من طُورِ سَيْنَاءَ ﴾ أى ومما أنشأنا لكم بالماء أيضا شجرة الزيتون التى تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذى كلم الله عليه موسى ﴿ تَنبُتُ بالدُّهْنِ ﴾ أى تنبت الدهن أى الزيت الذى فيه منافع عظيمة ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أى وإدام للآكلين، وسمى صبغا لأنه يلون الخبز إذا غمس فيه، فقد جمع الله فى هذه الشجرة بين الأدم والدهن . . . ».

من الدلالات العلمية للآية المباركة

نظراً لتميزها فإن شجرة الزيتون أصبحت تصنف اليوم ضمن رتبة خاصة بها من رتب النباتات المزهرة تعرف باسم رتبة الزيتونيات (Order Oleales)، وقد كانت شجرة الزيتون تجمع من قبل فى رتبة أخرى تعرف باسم رتبة الملتفات (Order Contortae). وتضم هذه الرتبة عائلة واحدة تعرف باسم العائلة الزيتونية (Family Oleaceae) التى تقسم إلى كل من تحت العائلة الزيتونية (Subfamily Oleoideae) وتحت العائلة الياسمينية (Subfamily jasminoideae).

وتضم أشجار العائلة الزيتونية ٢٨ جنساً، وما بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ نوع من أنواع النباتات المزهرة التى تنتشر انتشاراً واسعاً فى كل أنحاء الأرض ما عدا المناطق المتجمدة والباردة، إذ تنتشر فى كل من المناطق المعتدلة والمدارية بصفة خاصة، وتكثر ـ بالذات ـ فى حوض البحر الأبيض المتوسط، وفى جنوب غربى آسيا. وعلى الرغم من هذا الانتشار الواسع إلا أن أشجار هذه العائلة نادرا ما تكون هى الأشجار السائدة فى المنطقة الواحدة، ومن هذه الأشجار ما هو دائم الخضرة كشجرة الزيتون، ومنها ما هو متساقط الأوراق.

وتضم العائلة الزيتونية أشجاراً خشبية، كما تضم عدداً من الشجيرات، وبعض المتسلقات، ولكن تتميز كلها بأوراقها الريشية المتقابلة أو المتبادلة، البسيطة أو المركبة، والتى يمكن أن تكون لها أذينات صغيرة عند قاعدة الورقة، والثمرة فى أفراد العائلة الزيتونية إما أن تكون حسلية كما هو الحال فى ثمرة الزيتون ـ وهى ثمرة عصارية، حقيقية، تكونت من نمو مبيض الزهرة فقط، ولها بذرة صلبة فى قلبها ـ، وقد تكون الثمرة لبية أو علبية كما هو الحال فى بعض شجيرات الزينة ونباتات الأسوار التابعة لهذه العائلة. والبذور فى العائلة الزيتونية إندوسبيرمية أى

مغطاة بطبقة من الأنسجة التى تمثل غذاءً للجنين الذى عادة ما يأخذ شكلاً مستقيمًا فى داخل تلك الأنسجة.

والنباتات المنطوية فى الرتبة الزيتونية لها من الأهمية الاقتصادية والجمالية ما يتمثل فى شجر الزيتون بأنواعه وأصنافه المختلفة، وثمره وزيته وخشبه، كما يتمثل فى شجر الدردار (Ashes) المشهور بأخشابه الصلبة والشديدة التماسك، وفى عدد من الشجيرات والمتسلقات ذات العطور العبقة من مثل البنفسج (Lilacs) والياسمين (Jasminum = Jasmines).

وأشجار الزيتون تتميز بأنها أشجار معمرة حيث يمكن للشجرة الواحدة أن تعيش لأكثر من ألفى سنة. وينبت فى مصر صنفان رئيسيان من نوع الزيتون المعروف خطأ باسم «الزيتون الأوروبى» (Olea europaea) والذى أطلقت عليه مترادفات عديدة، ولكن كان من الأصح تسميته باسم «الزيتون السينائى» (Olea sinaensis) لأن زراعته انتقلت أصلاً من شبه جزيرة سيناء إلى باقى أجزاء حوض البحر الأبيض المتوسط.

وأحد هذين الصنفين يعرف باسم «الزيتون التفاحى أو البتلى»، ويتميز بثمرته الكبيرة الحجم، والقليلة الزيت نسبيًا، ولذلك يصلح للتخليل أكثر من كونه مصدراً للزيت، وتكثر زراعة هذا الصنف فى واحات صحراء مصر الغربية وفى منطقة الفيوم.

أما الصنف الآخر فيعرف باسم «الزيتون الشملالى»، ويمتاز بثماره الصغيرة الحجم نسبيا والغنية بالزيت، ولذلك يصلح أكثر للعصر واستخراج ما به من زيت، وتكثر زراعته فى شبه جزيرة سيناء وعلى طول سواحل البحر الأبيض المتوسط.

وفى فلسطين تزرع أنواع من الزيتون عديدة منها العربى، والصورى (النبالى)، والأزميرى (القنبيسى أو المللىمى)، والخضارى الطفيلى، والكتيب، والبياضى، والمركبى، والرصيعى، والركبى، والرصاعى، والكرمانى، والخلقانى. وفى بقية الدول العربية، ودول حوض البحر الأبيض المتوسط تزرع أنواع أخرى عديدة من الزيتون. أما الزيتون البرى (Olea Oleaster) الذى ينبت فى الأحراش بصورة فطرية فهو صغير الثمرة، مستديرها، قليل الزيت، وغير سائغ للأكل.

والآية القرآنية الكريمة التى نحن بصددها تشير بوضوح إلى شجرة الزيتون التى تؤكل ثمارها، ويؤتدم بزيتها وبما فيه من منافع، وقد جاءت الإشارة إليها منسوبة إلى طور سيناء مما يرجح أن هذه المنطقة هى أصل منبت شجرة الزيتون، كما ترجح وجود ميزات للصنف من الزيتون الذى ينبت فى تلك المنطقة تميزه عن غيره، وفى ذلك يقول ربنا ـ تبارك وتعالى ـ:

﴿ وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للآكلين ﴾ (المؤمنون : ٢٠).

﴿ تنبت بالدهن ﴾ أى تنبت ثمارها متلبسة بالدهن وهو زيت الزيتون، ﴿ وصبغ للآكلين ﴾ أى: إدام وطعام لهم، سمى صبغا لكونه إداما، ولأنه يصبغ الخبز إذا لامسه، ولعل فى ذلك إشارة إلى ما هو غير الدهن من مئات المركبات الكيميائية المهمة التى مكن الله ـ تعالى ـ شجرة الزيتون من استخلاصها من ماء وتربة الأرض، ونقلها فى العصارة الغذائية، وتخليقها فى أوراقها وثمارها، مما تعجز أكبر المصانع التى بناها الإنسان عن تحقيقه. لذلك امتدح ربنا ـ تبارك وتعالى ـ كلاً من شجر الزيتون وزيته فى ستة مواضع أخرى من القرآن الكريم، وأقسم بالتين والزيتون فى موضع ثامن منه، والله ـ تعالى ـ غنى عن القسم لعباده.

وشجرة الزيتون هى شجرة صغيرة، ولكنها شجرة معمرة، دائمة الخضرة، تتحمل الجفاف بشكل كبير، وثمرتها من أهم ثمار الزيوت النباتية، إذ يشكل زيتها ما بين ٥٠٪، ٧٠٪ من وزن الثمرة فى المتوسط، ويتكون زيت الزيتون من عدد من المركبات الكيميائية المهمة، والتى منها مركبات الجليسرين والأحماض الدهنية، وهذه المركبات معروفة باسم الجليسيريدات (Glycerides)، ويكون الحمض الدهنى نسبة كبيرة من وزن الزيت، ولذلك فإن صفات كل زيت تتوقف إلى حد كبير على نوع الحمض الدهنى المكون لمركب الجليسيريدات فيه. ومن أشهر الأحماض الدهنية فى زيت الزيتون وفى غيره من الدهون بصفة عامة ما يلى:

(١) حمض زيت الزيتون (Oleic Acid).

(٢) حمض زيت النخيل (Palmatic Acid).

(٣) حمض زيت الكتان (Linoleic Acid).

(٥) حمض الشمع (Stearic Acid.).

(٦) الحمض الغامض أو حمض المستريك (Mystric Acid).

هذا ومن المعروف أن مركبات الجليسيريدات (Glycerides) قد تكون مفردة الحامض أو مكونة من أخلاط من تلك الأحماض الدهنية ، فإذا كانت ناتجة عن اتحاد الجليسيرين مع حمض دهنى واحد فقط سميت باسم «الجليسيريدات البسيطة» (Simple Glycerides)، ولكن إذا نتجت عن اتحاد الجليسيرين مع أكثر من حمض دهنى واحد ـ وهو الأمر الغالب ـ سميت باسم «الجليسيريدات المختلطة ـ (Complex or Mixed Glycerides).

وعادة ما تكون الزيوت والدهون مركبة من جليسيريدات مختلطة إلا أن بعضها قد يحتوى على نسبة عالية من نوع معين من الجليسيريدات البسيطة وذلك مثل زيت الزيتون الذى يحتوى على نسبة عالية من جليسريدات حمض زيت الزيتون (Oleic Acid) تتراوح بين ٦٧٪، ٨٤٪ مما يميزه عن غيره من الزيوت النباتية. والدهون الحيوانية.

بالإضافة إلى ذلك يحتوى زيت الزيتون على البروتينات، وعلى نسب متفاوتة من عناصر البوتاسيوم،و الكالسيوم، والمغنسيوم، والفسفور، والحديد، والنحاس،والكبريت وغيرها، بالإضافة إلى نسبة من الألياف. وتدخل هذه المكونات فى بناء حوالى الألف مركب كيميائى حيوى فى زيت الزيتون، كلها نافعة لجسم الإنسان، وبعضها ضرورى لسلامته، ومن هنا كان فضل هذا الزيت على غيره من الدهون والزيوت التى تمثل مركبات عضوية لها تركيب كيميائى متشابه فإذا بقيت سائلة عند درجة حرارة (٢٠) درجة مئوية سميت زيتًا، وإذا بقيت جامدة عند نفس الدرجة سميت دهنا، ومنها الدهون المتعادلة، والشموع، والدهون المعقدة المعروفة باسم «الليبيدات المختلطة» (Mixed Lipids).

وأهم مصادر الزيوت النباتية هى بعض البذور الزيتية مثل بذور كل من القطن، والكتان، والسمسم ،ودوار الشمس، والخروع، والفول السودانى، وفول الصويا. كذلك يمكن الحصول على الزيوت النباتية من بعض الثمار الزيتية من مثل ثمار الزيتون، وجوز الهند، وثمار النخيل الزيتى، أو من بعض أجنة الحبوب من مثل القمح، والذرة، والأرز. وتستخلص الزيوت النباتية بطريقة الهرس ثم الكبس

أو العصر فى مكابس خاصة، وتعرف المادة الصلبة المتبقية من هذه العملية باسم «الكسب» الذى يستخدم علفاً للحيوان لغناه بالبروتين، وقد يستخدم ما يتخلف عن عصر بذور السمسم غذاءً للإنسان.

وقد ثبت بالدراسة أن أفضل الزيوت النباتية على الإطلاق هو زيت الزيتون، وذلك لما أعطاه الله ـ تعالى ـ من خاصية خفض ضغط الدم، وتقليل امتصاص الجسم للكوليسترول بصفة عامة، وإنقاص المعدل الكلى للكوليسترول فى الدم بحوالى ١٣٪، وإنقاص معدل الكوليسترول الضار فى الدم والمعروف باسم الكوليسترول الخفيف. Low Density Lepidoprotein (L. D . L) بنسبة ٢١٪ فيرفع بذلك نسبة الكوليسترول المفيد نسبيا فى الدم، والمعروف باسم الكوليسترول الثقيل High Density Lepidoprotein (H.D.L).

ومن الثابت طبيا أنه كلما انخفضت نسبة الكوليسترول الضار وزادت نسبة المفيد منه فى الدم كلما قلت نسبة الإصابة بالجلطات القلبية من مثل الإصابة المعروفة باسم احتشاء العضلة القلبية، وعلى ذلك فإن تناول زيت الزيتون بكميات منتظمة يحمى القلب من أمراض انسداد الشرايين وهى من أكثر الأمراض انتشارا فى الزمن الحاضر، خاصة فى الدول الغنية التى يبالغ أفرادها فى تناول الطعام إلى حد التخمة. وعلى الرغم من ذلك فقد لوحظ أن أقل نسبة إصابة بمرض الشرايين التاجية ـ الإكليلية ـ القلبية يوجد فى حوض البحر الأبيض المتوسط، وبالذات فى بلدانه التى يتناول أفرادها الزيتون وزيته بكميات ثابتة ومنتظمة، ويستخدمونها مصدراً أساسيًا للدسم فى طعامهم مما يشير إلى الدور الفاعل لهما فى الوقاية من أمراض شرايين القلب، فقد ثبت بالتحليل الدقيق احتواء كل من ثمرة الزيتون وزيتها على مركبات كيميائية تمنع تخثر الدم. وانطلاقا من ذلك يوصى الأطباء كل من أجريت لهم عمليات توسعة شرايين القلب بتناول ٤ ـ ٥ ملاعق من زيت الزيتون يوميا وبشكل روتينى كجزء من العلاج.

هذا، وقد جاء ذكر الزيتون وزيته فى سبعة مواضع من القرآن الكريم، وأقسم به ربنا تبارك وتعالى ـ وهو الغنى عن القسم ـ وأكد المصطفى ﷺ على قيمته الغذائية وقيمة زيته مما أثبتته البحوث العلمية والطبية فى العقود المتأخرة من القرن

العشرين. وتعتبر هذه الإشارات من المعجزات العلمية للقرآن الكريم الذى أنزل من قبل ألف وأربعمائة سنة، ومن معجزات الرسول الخاتم الذى تلقاه والذى يروى عنه ﷺ قوله الشريف:

«كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة» (أخرجه الإمام أحمد عن مالك ابن ربيعة الساعدى مرفوعًا)، وقوله - عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم - فى نفس المعنى: «**ائتدموا بالزيت وادهنوا به، فإنه يخرج من شجرة مباركة**» (رواه من أئمة الحديث كل من ابن ماجه والحاكم وعبد الرزاق)[1].

وهنا يتبادر إلى الذهن سيل من الأسئلة منها: لماذا أنزل ربنا - تبارك وتعالى - هذه الآية المباركة فيما أنزل من قرآن على خاتم أنبيائه ورسله ﷺ، وأنطقه بما نطق به من علم عن شجرة الزيتون، وثمرها وزيتها؟ وللإجابة على هذا السؤال نقول: إن الله - تعالى - يعلم بعلمه المحيط أن الإنسان سوف يصل فى يوم من الأيام إلى اكتشاف قيمة الزيتون وزيته الغذائية الصحية فتكون هذه الآية المباركة، كما تكون أقوال رسول الله ﷺ مما يشهد للقرآن الكريم بأنه كلام الله الخالق، ويشهد بالنبوة وبالرسالة للرسول الخاتم الذى تلقاه، فالحمد لله على نعمة القرآن، والحمد لله على نعمة الإسلام، والحمد لله على بعثة خير الأنام، خاتم الأنبياء والمرسلين، وإمام المتقين الغر المحجلين، والحمد لله فى الأولى والآخرة، والحمد لله فى كل وقت وفى كل حين، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد النبى الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه ودعا بدعوته إلى يوم الدين.

***

(١) ابن ماجه (٣٣١٩)، والحاكم (٤/ ١٢٢)، وعبد الرزاق (١٩٥٦٨).